فولفديتريش فيشر ونشأة النَّحو العربيّ

يوسف عبدالله الجوارنة

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، جامعة طيبة بالمدينة المنوَّرة، المملكة العربية السعودية

الملخص

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على الأمور الآتية:

أولاً: الكشفِ عن موقف المستشرق الألمانيّ فولفديتريش فيشر (ت 2013م) في تأثر النّحو العربيّ بالأنْحاء الأخرى (اليونانيّة والسّريانيّة) في أوّل نشأته قبل سيبويه، وبيان الحجج التي اتّكأ عليها وإبطالها؛ إذْ كان فيشر يدور في فلك غيره من المستشرقين، ولم يصدر في طَرْحِه الموضوعَ عن وعيٍ بتاريخ المرحلة.

ثانياً: بيانِ القيمة العلميّة لكتاب "مفاتيح العلوم" للخوارزميّ الكاتب، الذي انطلق منه فيشر لإثبات فرضيّة التأثّر التي بنى عليها مقالته، والإشارة إلى أنّه لا يشكّل علامةً دالّة في سياق التأريخ للدرس النّحويّ وتطوّره.

ثالثاً: إبطالِ الفصل الجائر بين سيبويه وأستاذه الخليل في تاريخ الدرس النّحوي، وأنّ الخليل يشكّل عنده نهاية مرحلة التأثر المزعومة، في حينَ جَعَل سيبويهِ يمثّل بداية مرحلة عربيّة، تَأَسَّسَ فيها النّحو العربيّ خالصاً من شوائب التأثّر ودواعيه.

توطئة

انطلق المستشرق الألماني فولفديتريش فيشَر (Wolfdietrich Fischer) (ت 1435هـ/ 2013م)، في إثبات فرضيّته بأنّ النّحو العربيّ تأثّر بالنّحو اليونانيّ في نشأته الأولى؛ أي: قبل سيبويه – انطلق من فصلٍ في كتاب "مفاتيح العلوم" للخُوارزميّ الكاتبِ (ت 387هـ)؛ إذْ إنّه كتب مقالة تتّصل بهذا الكتاب، وَسَمها بـ (فَصْل القَوَاعد في كتاب "مفتاح العلوم")[1]، ونشرها باللغة الإنجليزيّة في مجلّة جمعيّة المستشرقين الألمان سنة 1406هـ/ 1985م، وهذا دليل على عدم صحّة ما قرّره عبد الأمير الأعسم مُحقّقُ كتاب "مفاتيح العلوم" في نسخته الجديدة؛ إذْ رأى أنَّه منذ سنة 1964م وبعدها بربع قرن، لم يُعرف صدور أيّة دراسة تتصل بكتاب الخوارزميّ في دوائر الاستشراق.[2]

ويبدو أنّ مقالة فيشر الآنفة كانت مِهاداً لمقالته "نظرات في نشأة النّحو العربيّ"[3] المكتوبةِ في السّنة نفسها؛ أي سنة 1406هـ/ 1985م، إنْ لم تكن هي نفسُها؛ ذلك أنّه جعل من هذا الفصل في كتاب الخوارزميّ، خطّاً فاصلاً بين مرحلتين اثنتين: إحداهما نهاية مرحلة التأثُّر بالنحو اليونانيّ ويمثلها الخليل بن أحمد، وثانيتهما بداية مرحلةٍ عربيّةٍ خالصةٍ من كلّ شائبةٍ وتأثُّر، ويمثّلها تلميذه سيبويه، قال فيشر: "من الغريب في هذا الصّدد أنّ العلماء الباحثين في نشأة النّحو العربي، لم يَطّلعوا على نَصّ عربي يُحيطنا علماً بتطوّر النّحو العربي في الفترة التي سبقت سيبويه؛ مع أنّ هذا النصّ سَهْلُ المنال منذ تسعين عاماً[4]، وهو كتاب "مفاتيح العلوم" لأبي عبدالله محمّد بنِ أحمدَ الكاتبِ الخُوارزميّ، حيث نجد باباً عن النّحو".

وكتاب الخوارزميّ هذا، يُعدُّ من بين الكتب المهمّة في تأريخ العلوم عند العرب، ولا يقلّ أهميّة عن كتاب "الفهرست" لمعاصره ابن النديم (ت 384هـ)، بل إنّه يكاد يكون نسخة ثانية من كتاب "إحصاء العلوم" لأبي نصر الفارابيّ (ت 339هـ). وقد نَهَجَ فيه مؤلِّفُه طريقة سهلة موجزةً في الوقوف على المصطلحات وعَدِّها وترتيبها وبيانِها، وكَشَفَ الكتابُ عن إحاطةِ المؤلّفِ بتصنيف العلوم عند اليونان، فضلاً عن إحاطته بتصنيفها عند العرب.

بَيْد أنّ اعتماد فيشر في مقالته على هذا الكتابِ المنسوجِ بروح عَصْرِ المؤلِّف وثقافته، العَصْرِ الذي بلغت فيه الحضارة العربيّة ذروة نُضْجها وازدهارها، وانفتحت فيه على الثقافات اليونانيّة والسّريانيّة والفارسيّة وغيرها؛ ما دعا العلماءَ إلى مثل هذه التّصنيف المبوَّب، لِيَقفوا على الفضاء المعرفيّ للعلوم بمختلف أنواعها؛ علوماً دخيلة كانت أو أصيلةً – إنّ اعتماده عليه في استنتاج حقائقَ تَتَّصل بنشأة النّحو العربيّ، يَشُوبه في ظنّي كثيرٌ من الخلط والاضطراب؛ ذلك أنَّ البحث في حقائق هذه الفترة المبكرة من نشوء النحو العربيّ، يكاد يكون أمراً "من أعقدِ ما يواجهُ الدارسَ في هذا العلم، فهي فترةٌ تَفْتقدُ وثائقَها بدءاً من أبي الأسود الدّؤلي (ت 69هـ)، حتى ظهور كتاب سيبويه فيما بعد"[5].

وإنّ تَضْخيمَ فيشر نَصَّ الخوارزميّ وإعطاءَه هالةً، وأنّ العلماء الباحثين في نشأة النّحو العربي لم يَطّلعوا عليه، فذلك تَحَكّم وحُكم بعيد؛ فإنّ فيرستيغ الذي اعتمد عليه فيشرُ نفسُه في جزء من مقالته هذه، قد افتتح الفصل الأول من كتابه "عناصر يونانيّة في الفكر اللغوي العربيّ"، بقول الخوارزميّ: "هذه الصّناعة تسمّى باليونانيّة غرماطيقي، وبالعربيّة النّحو"[6]، غير أنّ الكتاب لم يكن مجالَ دَرْس النَّحْويين منذ ذلك الوقت في القرن الرابع الهجريّ؛ لأنّه كتابٌ في تصنيف العلوم وتبويبها من جهة، ولأنّ مؤلِّفَه ليس من أهل اللّغة بعمومها من جهة أخرى، ولأنّه ليس الوثيقةَ الوحيدةَ التي تَفُكّ اللّغز التاريخيّ في نشأة النّحو العربيّ من جهة ثالثة، فضلاً عن كَوْن البحث في هذه النشأة طارئاً مستحدثاً من جهة رابعة، وذلك لا يَعْني أنّ بعض المُحْدَثين لم يتناولوه بالدّرس والتّحليل؛ فقد عرض له غير واحد منهم، كالقوزيّ، وعبابنة، وعمايرة، وغيرهم.

ولذلك، ولهذه الهالة التي صنعها فيشر وأحاطها بالكتاب ومؤلّفه، أثارته الدّهشةُ في أنّ الخوارزمي لا يَذْكر في كتابه اسمَ سيبويه، مع أنّ النّحاة في ذلك الزّمن مثل المبرّد، وابن السّرّاج، والزّجاج، وتلميذه الزّجّاجي، "كانوا جميعاً يقرؤون كتاب سيبويه، ويَعْتبرونه المصدر الأساسيَّ الرئيسَ للنّحو" بحسب تعبيره. وتتبدّد هذه الدّهشة والحيرة في ظنّي؛ لأنّ المؤلِّفَ عَدَّ سيبويه في عامّة النّحويّين البصريّين والكوفيّين، موضوعِ الفصل الأوّل منه، وهل كان الخوارزميّ

من جملة النّحويين حتّى يشير بسكوته عن سيبويه إلى أنّه ليس من أتباعه، الذين "أصبح لهم المذهب السائد في النحو، وقد أخذ النسيانُ يَطْوي مَن تَبع غيره من المذاهب النحويّة"، على حدّه أيضاً؟

ولعلّ المؤلّف إذْ وضع كتابه، لم يكن لينتسب لمذهبٍ نَحْويّ، أو فقهيّ، أو فكريّ، وكان وُكْده منصبّاً على إحصاءِ مفاتيح العلوم وبيانِ مفهومها، وإنْ كان ذلك كذلك، فلا يَخْرج عن الطريقة المتّبعة في عصره، وهي تَشَرُّبُ العلومِ كلِّها بالعلوم الدّخيلة والتأثّر بها.

لذلك، عَدَّ فيشر كتاب "مفاتيح العلوم" المصدرَ الوحيد لتعرّف "المذاهب غير الواردة لدى النّحويينَ المُقْتَفِينَ أثرَ سيبويه"؛ وهذه المذاهب التي كَشَفَ عنها اللثامَ الخوارزميّ، هي ما حكاه من مصطلحاتٍ عن الخليلِ بنِ أحمدَ غيرِ متداولةٍ لدى النّحويين من لدن الخليل إلى الخوارزميّ؛ بل إلى يومنا هذا؛ هذا من جهة، وما حكاه من وجوه الإعراب على مذهب فلاسفة اليونانيين، من جهة أخرى- وذلك مَزْلق كبير؛ لأنَّ هذا الفصل من كتاب الخوارزميّ، لا يشكل وثيقةً حقيقيّة لإثبات تأثّر النّحو العربيّ في نشأته بالنّحو اليوناني؛ لأنّه كتابٌ وُلِد وصِيغَ بلغة العصر الذي تداخلت فيه الثقافات، فليس غريباً في هذا الزمن أن يشير الخوارزميّ إلى "وجوهِ الإعراب على مذهبِ فلاسفةِ يونان"[7]؛ لأنّ النّحو العربيّ تأثّر في زمن المؤلّف أيّما تأثرٍ بالفلسفة والمنطق، وذلك لا يَخْفى على كلّ باحث في حركيّة تطوّر النّحو العربيّ على مرّ العصور.

وعليه، فقد بدا لي فيشرُ في مقالته حائراً تُجاه جُملة الأفكار التي يَطْرحها فيها، لا يَلْوي على شيءٍ، وإنّه لحيرته جعل ما خَطّه في نشأة النّحو العربيّ (نَظَراتٍ)، وقد أَلْفيتُه فيها مضطرباً يحاول إثبات ما يَزْعمه، لكنه تَصْدمه الحقائقُ التي أثبتها المستشرق الفرنسي جيرار تروبو، الذي كان أكثر علميّة منه وهو يتحدّث عن هذه الفترة في مقالته "نشأة النّحو العربيّ في ضوء كتاب سيبويه"[8].

من ذلك أنّ فيشر وهو يعيب على المستشرق الألماني أدلبارتوس ميركس (A. Merx)، أوّلِ من دَعَم زَعْمَ المستشرق الإيطالي أغناطيوس جويدي (A. Guidi) (ت 1359هـ/ 1940م)، القائلِ بتأثّر النّحاة العرب بالتراث الإغريقي، و"أَكْسَبَه

مصداقيّةَ الفَرَض العلميّ عند الباحثين"[9]، فزعم باقتباس النّحاةِ العربِ الأوائلِ بعضَ المفاهيم والمصطلحات من الإغريق؛ رأى- أي: فيشر- أنّ بحثه لم يكن عميقاً في مجاله هذا، وإنّه وهو يعيب عليه، لا يَبْرح يدور في فلك تروبو، مؤكّداً صحّة ما ذهب إليه في هذا السّياق، ونَقَلَ عبارته بنصّها: "ثمّ نرى معظم المستشرقين قد اتّخذوا هذا الرّأي بدون تَحَفّظ".

ومن ذلك أنّه يعتمد في حديثه عن التّشابه المزعوم بين أقسام الكلام في العربيّة واليونانيّة، بأنّه ينحصر في "الاسم" فقط، ولا يَمتدّ إلى المصطلحَيْنِ الآخرين "الفعل والحرف" - إلى ما قاله تروبو؛ من أنّ النّظام النّحوي الذي يَتَضمّن تلك المصطلحاتِ اليونانيّة مختلِفٌ اختلافاً تامّاً عن أقسام الكلام في النّحو العربيّ[10].

ثم هو يستند إلى تروبو في الردّ على أتباع التأثير اليوناني في النّحو العربي، الذين يزعمون بأنّ مصطلحات "الإعراب" و"الحركة" وغيرها- بوصفها مصطلحاتٍ نحويّةً- انعكاسٌ لمصطلحاتٍ يونانيّةٍ، قال فيشر: "ولكنّ الدكتور تروبو أبرزَ بكلّ وضوحٍ الشّكوكَ اللازمةَ المتعلّقةَ باعتبار تلك المصطلحاتِ اليونانيّةِ نماذجَ للنّحوِ العربي"، وهذا دَفَعه إلى أنْ يَضْرب صفحاً عن البحث في تفاصيلِ هذا الموضوع، مع أنّه إذْ سَلّم بأنّ حواراً محتملاً وَقَعَ بين النّحاة العرب واليونان في بداية نشأة النّحو، من خلال اكتشافِ العلماءِ بضعةَ مصطلحاتٍ نَحْويّةٍ يُمْكن إرجاعها إلى نماذجَ يونانيّةٍ، استدرك أنّ هذا التّسليم لا يتعارض مع ما سطّره تروبو في نتائج تلك المناقشة إذْ قال: "أظنّ أنّ المستشرقين قد أخطؤوا عندما اعتمدوا على بضعةٍ من المصطلحات اليونانية ليبرهنوا على مُضارعةِ النظام العربي النظامَ اليونانيَّ؛ لأنّ كلّ واحدٍ من المصطلحات جزءٌ مِن نظام معقّد، ليس له معنى خارجٌ عن هذا النظام"[11].

أبو الأسود الدّؤلي وتأسيس النّحو

زَعَم فيشر أنّ الأخبار المتعلّقة بتأسيس أبي الأسود الدّؤلي للنّحو العربيّ، أسطورةٌ غير ثابتة ولا سندَ وثيقاً للرواية يُسْندها، ويرى أنّ من الأساطير المنسوبة

إليه، تلك المُلْحَةَ الجميلة التي تَرويها أغلب المصادر بشأن ابنته إذْ سألته يوماً: يا أبتِ، ما أَحسنُ السّماء؟ قال: أيْ بُنَيّة، نجومُها. قالت: إنّي لم أُرد: أيُّ شيءٍ منها أَحْسن؟ إنّما تَعجّبتُ من حُسنها، قال: إذاً فقولي: ما أحسنَ السّماءَ![12].

وفيشر في زَعْمه هذا ليس أول من أطلق على صنيع أبي الأسود بأنّه أسطورة، بل هو مسبوقٌ وتابعٌ لغيره من المستشرقين؛ فقد ذهب إلى ذلك المستشرق الألماني بروكلمان (C. Brockelmann) (ت 1956م)، ورأى أنّ صنيع أبي الأسود وتلاميذِه المزعومين في وضع النّحو، هو من قبيل الأساطير[13]، وصار قولُه علامةً لمن جاء بعده، ومنهم العرب المعاصرون أنفسهم.

وهذه النّغمةُ دأب عليها بعض المستشرقين الذين استكثروا واستكبروا أنْ يكون عند العرب والمسلمين حركةٌ علميّة تقوم على نَسَقٍ إسلاميّ عربيّ خالص، والمسلمون- عرباً وغيرَ عرب- أبدعوا أيّما إبداعٍ في أشياءَ كثيرةٍ غيرِ النّحو، مثل مفاهيم الفقه الإسلاميّ، ومنطق القياس التّمثيليّ، ومسالك العلَّة عند الأقدمين، وهي مفاهيمُ ومناهجُ عربيّة مَحْضة؛ فلا يوجد علاقة بين العلَّة الفقهيَّة والنحويَّة من جهة، وعلل أرسطو من جهة أخرى[14].

ولعل المستشرق الفرنسي إرنست رينان (E. Renan) (ت 1892م) واحد منهم، بل يكاد يكون زعيمَهم في هذا الاتّجاه؛ فقد كان يسعى إلى تَجْريد الدّين الإسلامي من كلّ فضيلة، واستكثر أنْ يَنْبت في تُرْبته أيُّ عِلْم من العلوم، وهو- في نَظَرِه- دِينٌ عربيّ يَحْمل ملامحَ القصور التي اتّسمت بها العقليّة السّاميّة[15].

وموضوعُ أوّليّة النّحو، أو المؤسّس الحقيقيّ له، قيل فيه كلام كثير، وتَشَعّبت فيه آراءُ القدماءِ حتّى وصلت عند أبي البركات الأنباريّ (ت 577هـ) إلى ستّ روايات، يَعْنينا منها الرّوايةُ الخاصّة بأبي الأسود دون تَوْجيهٍ من أحد[16]، وكان ابن سلّام الجمحيّ (ت 231هـ) أوّلَ من قال بها، ونَسَبَ تأسيسَ العربيّة (أي: النّحو) لأبي الأسود، قال: "أوّلُ مَن أسّس العربيّة، وفَتَحَ بابَها، وأَنْهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدّؤلي. . .، وكان رجلَ أهل البصرة، وكان علويَّ الرّأي"[17]، وصار قولُه بعد ذلك أساساً لكلّ من جاء بعده، يَزيد على

روايته أو يُنْقص فيها، منهم ابن قتيبة الدّينوريّ، وأبو الطيب اللغويّ، وأبو سعيد السّيرافيّ، والزبيدي وغيرهم[18]. بيد أنّ ابن فارس (ت 395هـ) في القرن الرّابع الهجريّ، غالى في الموضوع، وانفرد من بين القدماء، وذهب إلى أنّ النّحو أقدم من زمن أبي الأسود، وأنّه صار بين أيدي النّاس قليلاً، فجاء أبو الأسود يُجَدّده ويُشيعه[19].

أمّا المُحْدثون فطائفتان: إحداهما رأت أنّه لا سبيل إلى تحقيق تاريخ وضع النحو، وأنّ معرفةَ واضِعِه يكاد يكون مُعْضلة، وتَخِذت من الروايات التي تَنْسب الأوّليّة إلى أبي الأسود موقفاً ضَرَبَت به كلَّ تلك الرّوايات عُرْض الحائط، بل جارت المستشرقين وقالت بأقوالهم، ورأت أنّها لا تُجانبُ الحقيقة[20].

والطائفة الثانية من المحدثين[21] حاولت إثبات الأوّليّة للدؤليّ دون الإمام عليّ، قال سعيد الأفغانيّ بعد أنّ عدّد الروايات، ومال إلى أنّ أبا الأسود هو من وَضَعَ النّحو: "ومَن يَقْرأ بإمعان ترجمة أبي الأسود في تاريخ دمشق لابن عساكر مثلاً، ثمّ يُفكّر في تَوَارد أكثر المصادر على جَعْله واضعَ الأساس في بناء النّحو لا يستبعد ذلك؛ فالرّجل ذو ذكاءٍ نادر وجوابٍ حاضر، وبديهةٍ نَيّرةٍ، ثمّ هو بعدُ بليغٌ أريب مرِنُ الذّهن، وحسبُك اختراعُه الشّكلَ الذي عُرف بنقط أبي الأسود للدّلالة على الرّفع والنّصب والجرّ والتنوين، وهو -أي النقط- ما أجمعوا عليه قديماً ولم يشكَّ فيه حديثاً أحدٌ"[22]، ويرى عبد العال سالم مكرم أنّ أبا الأسود "حَلْقة في سِلْسِلة المَعْرفة اللّغوية. . . ، بَرَز في مَجالِها، وزاد نَشاطُه في حَقْلها؛ فنسبت إليه نشأة أضخم علمٍ شَغَل النّاس قروناً طويلة"[23]

ويبدو أنّ ما ذهبتْ إليه الطّائفةُ الثّانية له ما يَدْعمه ويُقوّيه؛ ذلك أنّ العلماء يكادون يُجْمعون على أنّ ما قام به الدّؤلي من نَقْطِ المصحف نَقْطَ إعراب، هو البذرة الأولى لوضع القواعد في الدّرس اللّغويّ عند العرب، بصرف النّظر عن صحّة ما يُنسب إليه من موضوعات في النّحو قَعّدها وبَوّبها، وذلك فيما رواه ابن النّديم في الفهرست[24]، أنّ صحيفته المعروفة عند النّحاة بـ "التّعليقة"، احتوت على أربع ورقات فيها كلام في الفاعل والمفعول؛ بل إنّ هذا الأمر "يدفع الرّوايات التي جعلت عبد الرحمن بن هرمز ونصر بن عاصم هما واضعَيْ علمِ

النّحو؛ فنصرٌ هو واضع نقط "الإعجام"، وثمّة فرق بين النّقطين. أمّا ابن هرمز، فلعلّ نسبة الأوّليّة إليه من قبيل أنّه تتلمذ على أبي الأسود، ثمّ أظهر هذا العلم في المدينة، وهو، كما أثبت القفطي[25]، أوّلُ من أظهره وتَكَلّم فيه بالمدينة، وما أخذ أهلُ المدينة النّحو إلّا منه، ولا نقلوه إلّا عنه"[26].

وعليه، فإنّ هذه البذرة التي رمى بها أبو الأسود، وهي "مجرّد نظراتٍ في اللغة قريبة، وملاحظاتٍ على الأساليب يسيرة، يَهْدي إليها الطّبع، ويَقْضي فيها الذّوق"[27] – كانت الشّرارة التي انطلق منها تلاميذُه نَصْرٌ وابنُ هُرْمز ويَحْيى وعَنْبَسة ومَيْمون، وتلاميذُ تلاميذِه عبدُالله بن أبي إسحاق ومن تبعه كعيسى بنِ عمر وأبي عمرو بن العلاء والخليل ويونس بن حبيب، إلى أن استوى النّحوُ ناضجاً في كتاب سيبويه المسبوقِ بمحاولاتِهم قبله، فكانت "لبناتٍ متفرّقةً، أسهمت جميعُها في إقامة هذا البناء الشّامخ"[28]، والنّحو في مظاهره وقضاياه، ما هو إلّا "هذه الحركات التي تتناول معظم أبواب النّحو: المرفوعات، والمنصوبات، والمجرورات"[29]. بل إنّ العملَيْنِ اللذين قام بهما الدؤليّ وتلميذه نَصْر، المتمثّلَيْنِ في "نَقْط الإعراب" و"نَقْط الإعجام"، يعدّان "منهجاً سليماً للإصلاح والدّرس اللغويّ في وقت لم تُعْرف فيه مناهج علميّة، ولم يُوضع فيه تخطيط لأيّ نوعٍ من أنواع الدّراسات المختلفة"[30].

وعليه، فإنّه ليس صحيحاً ما ذهب إليه فيشر؛ من أنّه ليس بوسع الباحث أنْ يَسْتخرج من مثل الأساطير التي تَحَدّث عنها "صورةً حقيقيّةً لتطوّر النّحو العربي بين منتصف القرن الأوّل ونهاية القرن الثاني" بحسب تعبيره، وهو رَأَى في الوقت نفسه أنَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه، يُشَكّلان ظاهرةً مفاجئة في تطوّر النّحو العربيّ في هذه الفترة الزّمنيّة، فكيف يكون لهما ذلك؟ وما هذا التناقض في الأحكام التي يَسُوقها من غير دليل لإثبات زَعْمٍ افترضه؟ وما هذه الحلقة المفقودة التي فات بريقُها العلميّ الخليلَ وسيبويه؟

لذلك، فإنّه ذهب في مقالته إلى أن أصلَ النحو العربي يُحيط به غُموض شديد؛ لأنّ الكتب الخاصّة بتراجم النّحويين وطبقاتهم، لا تقدّم أدلّة – إذْ تترجم لكثير من النَّحويِّين الذين عاشوا في القرنين الأول والثاني – تُحيط الدّارسين

علماً بأفكارهم في النحو؛ "فلا نَعرف سوى أسمائِهم وبعضِ عناوينِ الكتب التي يُقال إنّها مؤلّفاتُهم". ثمّ لماذا بعدُ ذلك حكايةُ هذه الأساطير؟ وما الهدف المُرْتجى منها؟

لا شكّ أنّ هذا المسلكَ دَيْدَنُ بعضِ المستشرقين في وَأْدِ كلّ محاولةٍ أصيلة قام بها العرب، ونَبَتت في سياق الحضارة الإسلاميّة المنبثقة من القرآن الكريم، وذلك مقصود لذاته كي يقولوا: إنّ هذا العمل المفاجئ - وليس مفاجئاً - جاء على نَمَطٍ مكتملٍ غيرِ مسبوق، يَتَغَيَّون به تشويه صورة واقعة لا ينكرها باحث اتّصف بميزات البحث العلميّ الجادّ الصّادق، بعيداً عن الهوى والتّعصّب وغياب الموضوعيّة. وفيشر الذي يَنْظر إلى العربيّة على أنّها من أهم اللغات العالميّة في العصر الحديث، واتّسعت آفاقه المعرفيّة، وتعدَّدت اهتماماته في سياق اللّغة العربيّة والحضارة الإسلاميّة، مَكَّنته أنْ يكون باحثاً في الطَّليعة- أَجْدرُ به أن يحاكم النّصوص ويقرأها في سياقها الطّبيعي، حتّى لا يقع فريسة لسطوة الأحكام وجذوتها.

والذي يبدو أنّ هذا الافتئاتَ على النّحو في نشأته، ورَدَّه إلى غير سياق النّهضة الشّموليّة التي انبثقت في ظلال القرآن الكريم، يعود في ظنّي إلى سبب خَفِيٍّ يكاد يَخْفى على غيرِ فئةٍ من فئات الباحثين العرب، حلا لها أنْ تُردّد مقولاتِ بعض المستشرقين على أنّها مسلّمات لا جدال فيها- ألا وهو تَفْريغ سِرّ قوة العرب اللغويّة في قرآنِهم، وأنّه لا يكونُ العاملَ القويَّ المهيمنَ على نشاطهم اللغوي، وهم يؤسّسون لِعِلْم لَهُم به مسيسُ حاجة، فرضتها عليهم دوافعُ متعدّدة، الدافعُ الدّينيّ في مقدّمتها وهو المحفّز لها، وإلّا لماذا يصاحب هذا الغموضُ النّحوَ فقط من بين سائر العلوم المتّصلة بالقرآن الكريم؛ القراءات والفقه والتفسير وغيرها؟

الخليل وسيبويه

إنّه في الوقت الذي يَعيب فيه فيشرُ على صنيع أبي الأسود الدؤلي ومَن جاء بعده من المنشغلين بالعربيّة، يَذْهب إلى أنّ الخليل يُشكّل نهايةَ مرحلةِ التأثر

بالنّحو اليونانيّ، وكأنّه، أي: الخليل مع ما فيه من مقوّمات الرّيادة والعبقريّة- وُلدَ طَفرةً من غير شيوخ تتلمذ عليهم وأخذ عنهم واختلف إليهم.

ثمّ يَنْعطف فيشر انعطافة كاملة، ويُقرّر أنّ ما جاء به سيبويه في كتابه الذي يَعُدّه إنجازاً مُدهشاً، ويُعطي صورةً متكاملةً دقيقةً لقواعد العربية لم يُنقِّحْها المتأخِّرون إلّا في التفاصيل، ويُفسّرها ويناقش مشاكلَها على ضَوْءِ نظريّةٍ علميّةٍ لغويّةٍ- يُقرّرُ أنَّ هذه النظريّةَ اللغويّةَ في كتاب سيبويه مستقلّةٌ عن النّحو اليونانيّ، وتمثّل بداية مرحلة إسلاميّة عربيّة خالصة من شوائب التأثّر، ويرى أنّ قول جيرار تروبو: "أعتقد أنّ علم النّحو أعربُ العلوم الإسلامية وأبعدُها عن التأثير الأجنبي في طَوْره الأوّل"[31] في هذا السياق، إنّما يَسْري مَفعولُه على سيبويه وليس على الفترة قبله على حدٍّ سواء على حدّ تَعْبيره.

وهذا الذي يَسوقه فيشر ويُقرّره، فيه سلخ للتاريخ عن بعضه، وإنّ الطَّور الأوّل الذي قَصَده تروبو، لا يَفْصل فيه بين الخليل وسيبويه، لأنّ الفصلَ بينهما فَصْلُ روحٍ عن جَسَد، وروحُ الخليل وغيره من شيوخ سيبويه في "الكتاب"، و"الكتابُ" ليس إلّا "سجلّاً صادقاً لِما كان يَجْري بين العلماء في الميدان النّحوي، ولِمَا كان يَصْدر عنهم من آراء في المسائل النّحويّة"[32].

ثمّ إنّ هذا الفصل بين الخليل وسيبويه، هو مزلقٌ آخرُ يضاف إلى المزالق التي وقع فيها فيشر في مقالته، وهو رأي فطير لم يَصْدر فيه عن وَعيٍ بطبيعة المرحلة التي يتحدّث عنها، وربّما صدر هذا عن غيره من المستشرقين بصورة مغايرة؛ فقد جعل المستشرق الألماني إرش بروينلش (E. Braunlich) (ت 1945م) الخليلَ في مقالته "الخليل وكتاب العين"، جعله يشكّل نهاية مرحلة خالصة في نشأة النّحو العربيّ، وجعل سيبويه يمثّل بداية مرحلة التأثّر بالمؤثرات الأجنبيّة[33]، وهو تغايرٌ واضحٌ بينهما بل تناقض واضطراب؛ فهل يَصدرون في آرائهم عن أدلّة يَسْتندون عليها؟ فإنَّ التأثّر في هذه المرحلة إنْ وَقَعَ، شَمل الخليل وسيبويه، والعكس صحيح.

وعليه، فإنّه من العبث في البحث العلميّ عند التأريخ لنشأة النّحو العربيّ في بداياته الفصلُ بين الخليل وسيبويه، ومن التّحكّم إعطاؤهما حُكْمين مُتوازيَيْنِ

مُتخالفَيْنِ؛ لأنَّ سيبويه بكلّ ما جاء في كتابه هو تابع لهذه المرحلة لا ينفصل عنها، وليس له من دونِها أُفُقٌ يُذْكر، ولهذا فإنّ الدكتور عبدالرحمن الحاج صالح - الذي أَفْنى عَشْر سنوات لإثبات أصالة النّحو العربيّ - بَحَث في مقالته "النّحو العربيّ ومنطق أرسطو"[34] حيثيّاتِ التأثّر هذه، وتَوَصّل إلى أنّ النّحو العربيّ لم يتأثّر في نشأته، ولا عند اكتماله في زمن الخليل وسيبويه، بمنطق أرسطو إطلاقاً[35]، وهو ما أكّده جيرار جهامي وهو يتحدّث عن المرحلة الأولى من نشأة النّحو الممتدّة إلى وفاة سيبويه، إذْ رأى بأنّ هذه المرحلة شبيهة بالحقبات التي شهدتها ولادة سائر العلوم الإسلاميّة، صافيةً خاليةً من كلّ عِلْمٍ دخيل؛ فهي لم تَمْتزج بمؤثرات فكريّة إغريقيّة أو سُريانيّة، وبقي فيها النّحو على حالة من الأصالة والثبات على لغة الأعراب والإسلام، وقال: "فالطّبقة الأولى من النّحاة أمثال الخليل وسيبويه، لم تَصُغِ النّحو صياغةً فلسفيّة، إنّما صياغة لغويّة بيانيّة طبيعيّة، تَتَماشى مع المواضيع النّحويّة والتّركيبات والتّصاريف العربيّة"[36].

حوارات النّحاة العرب الأوائل مع غيرهم

أكّد فيشر في غير موضع من مقالته اتصالَ النّحاة العرب الأوائل مع اللغويين الإغريق والسّريان المقيمين بينهم في أوَّل نشأة النّحو العربيّ، وأكّد إجراءَهم حواراتٍ معهم، ودليلُه على ما ذهب إليه يتمثّل في بضع مسائل سأعرض لها بعد قليل.

ولم يُحَدّد فيشرُ طبيعة العلاقة بين الطّرفين، ولا كُنْهَ الاتصال بينهما، مثل تشابه نَقْطِ أبي الأسود نَقْطَ السّريان، ومعاصرةِ الخليل لِحُنين بن إسحاق المولود بعد وفاة الخليل بعشرين عاماً، وحكايةِ ترجمة عبدالله بن المقفّع منطق أرسطو الذي قام به ابنه محمّد المتوفّى بعد سنة (150) للهجرة، كما أثبت ذلك المستعرب اليهودي بول كراوس (P. Kraus) (ت 1944م)[37]، والتي ترجمت بعد تأليف كتاب سيبويه، ما يدلّ على أنّ العرب، كما يقول المستشرق الألماني إنّو لتمان (E. Littmann) (ت 1958م): "ابتدعوا علم النّحو في الابتداء، وأنّه لا

يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدّموه"، وقال فيه: "إنّه نَبَت عند العرب كما تَنْبت الشّجرة في أَرْضها"، ثم قال: "ولكن لَمّا تَعَلّم العرب الفلسفة اليونانيّة من السّريان، تَعَلّموا استنباط النّحو"[38]- وغيرِها ممّا يُثار في هذا السّياق، على طريقة المستشرقين في عَرْضها؛ فقد رأى المستشرق الإيطالي جويدي، الضّليعُ باللغات العربيّة والحبشيّة والسّريانيّة- رأى في نَقْط أبي الأسود في بداية اللحن صورةً ممّا فعله السّريان في لغتهم[39]، حفاظاً على كتابهم المقدّس، بصرف النّظر عن صحّة اتّصال أبي الأسود بالسّريان من خطئه. وذهب الدكتور حسن عون إلى إثباتِ كلام جويدي والقَوْلِ به؛ فإنّه بعد أنّ تحدّث عن أبي الأسود، وولايته في العراق التي كانت مَغْزوّة بالمعارف السّريانيّة، قال: "أليس من العِناد إذن أنْ نقول: إنّ أبا الأسود الدّؤلي لم يَسْتمدّ طريقةَ نَقْط الشَّكل من السّريانيين الذين سبقوه بالعمل نفسه؟"[40].

وإذا كان ذلك كذلك، أي أنّ أبا الأسود تأثر في نَقْطه بالسّريان، فإنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ النّحو السّريانيّ عند استوائه كان متأثراً بالنّحو العربيّ، ذكر ذلك مطران دمشق الأب إقليميس يوسف داود في كتابه "اللُّمْعة الشّهيّة في نحو اللغة السّريانيّة"، إذْ رأى أنّ نَحْو اللغة السّريانيّة متأثّر بالنّحو العربيّ، ورأى أنّه من الواجب على الباحثين السّريان، "ألّا يبحثوا عن أصل النّحو السّرياني وتقسيماته في اللغة اليونانيّة، وإنّما يبحثون عنها في نَحْو اللغات السّاميّة أخواتها، ولا سيّما اللغة العربيّة"[41]، وأثبت هذا التأثير الدكتور أحمد مختار عمر، إذْ وضع السّريانُ نحوَهم على نمط النّحو العربي؛ لأنّه أقرب إلى لغتهم من النّحو اليوناني[42].

أما المسائل التي رأى فيشر أنّها دليل على اتّصال النّحاة العرب الأوائل بغيرهم من اليونان والسّريان، فهي:

أولاً - القياس النّحوي

خالف فيشرُ المستشرقَ الهولنديّ فيرستيغ الذي ذهب إلى أنّ القياس النّحويّ، تأثّر فيه النّحاة العرب بالمنطق الأرسطيّ، ورأى أنّه لا يمكن ردُّه إلى

الاتصالات المفترضة بين النّحاة العرب واليونان، قال: "ومع أنّ القياس من المصطلحات النّحوية الأساسيّة دون شكّ، إلّا أنّه يَجب علينا أنْ نُقِرّ بكونه مصطلحاً علميّاً شائعَ الاستعمال. ولذا، كان ليس لنا أَنْ نردّه إلى الاتّصالاتِ المفترضَةِ بين النّحاة العرب واليونان".

إنَّ حَدْسه بأنّ النّحاة استعاروا هذا المصطلح؛ أي: القياس، من الفقهاء؛ لأنّ أكثر النّحاة كانوا على إلمام بالفقه أيضاً- هو الصّواب الذي لا يدانيه شكّ؛ لأنّ القياس العربيّ هو غير القياس الأرسطي (التمثيلي)، فهو ليس مجموع مقدّمتين ونتيجة، "وليس هو مماثلاً لـ (Analogia)؛ إحدى الطرق الاستدلاليّة الثلاث عند أرسطو، وهي القياس، والاستقراء، والتمثيل"[43]، وقد سبق المستشرقُ الإنجليزي ميكائيل كارتر (M. Carter) فيشر، وذهب إلى أنّ المنحى الفقهيّ القياسيّ طاغٍ على قواعد سيبويه، واستبعد النظر إليها من زاوية منطقيّة يونانيّة[44]، وأيّده جيرار تروبو في مقالته.

وأمّا ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم مدكور في مقالته "منطق أرسطو والنّحو العربيّ"، من أنّ القياس النّحوي موضوعٌ على نحو ما وضع القياس المنطقي من الناحية المنهجيّة، وأنّ النّحاة الأُوَل فَزِعوا إليه بحكم سَجِيّتهم وفطرتهم، وأنّه لم يَجئْ عبثاً، بل كان وليدَ تأثّرٍ بمنطق أرسطو[45]، فغير صحيح؛ لأنّ النّحاة المتقدّمين كانوا لا يَنْفكّون عن منطق الفقه الإسلامي، وطبّقوه على علوم العربيّة؛ وعرّفوا القياس النّحوي بأنّه "حَمْلُ فرعٍ على أصل بعلّة جامعة، وإجراءُ حكم الأصل على الفرع"[46]، وهذا التعريف نسخة عن القياس الأصولي الذي حَدّه الأصوليون بأنّه "حَمْلُ معلوم على معلوم، في إثباتِ حُكم لهما أو نفيِه عنهما، بأمرٍ يَجْمع بينهما"[47]، وإذا كان يمكن القول: إنّ النّحاة منذ أبي إسحاق الزّجاج قد تأثّروا بالمنطق، فإنّ من غير الإنصاف القولَ: "إنّ النّحو العربيّ استحال منطقيّاً فلسفيّاً"[48]، بل إنّ نظرة في مصطلحات النّحويين وقواعدهم وطرق تطبيقها واستعمالها، ليدلّ على أنّها كانت "فقهيّة المنحى، اختلطت بمباحثهم قبل ورود المنطق وبعده"[49].

وللأفغاني مبحث لطيف في "أثر العلوم الدينيّة في القياس اللغويّ"[50]،

كشف فيه عن الرّباط الوثيق بين علم النّحو وعلوم الدِّين والشَّريعة، ونَقَل عن علماءِ العربيّة ما يُثْبت تأثّرَ القياس النّحوي بالقياس عند الفقهاء، وأثبت عن الأنباريّ مؤلِّفِ "لُمَع الأدلّة"؛ أنّه وضعه ليكون للنّحو بمثابة علم الأصول للفقه، وعَقَد فيه فصولاً للقياس وأنواعه...؛ لبيانِ إدراك "الأثر البعيد الذي للعلوم الدينيّة في نشأة العلوم اللسانيّة"[51]، على حدّ تعبيره.

وعليه، فإنَّ القياس النّحويّ متأثّراً بالقياس الفقهيّ الذي كان شائعاً قبل ترجمة العلوم اليونانيّة إلى العربيّة- بدأ على يد عبدالله بن أبي إسحاق "قياساً لغويّاً فطريّاً"[52]، فهو أوَّلُ من بَعَجَ النّحو ومدّ القياس وشرح العلل، بحسب ابن سلّام[53]، بل إنْ كان من تأريخٍ علميّ للنّحو، فإنّه يبدأ من لدن عبدالله بن أبي إسحاق أوَّلِ نَحْويّ بمعنى الكلمة، وبعده عيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء؛ لأنّ هذه الطبقة "قامت الدّلائلُ على أنّ رجالها كانوا يتناولون بالدّرس مسائلَ نحويّة، وإنْ كان نَحْوُهم لا يَنْتظمُ أبوابَ النّحو ومسائلَه"[54]، الذي انتظم وتَطَوّر على يد الخليل وسيبويه.

ثانياً - الاسم من أقسام الكلام

رَجّح فيشر أن يكون الاسم من بين أقسام الكلام، واحداً من المصطلحات الدّخيلة عن طريق هذا الاتصال والحوار، قال: "يُمْكن أنْ نَعْتبر مصطلح "الاسم" واحداً من المصطلحات الدّخيلة عن طريق الحوار بين النّحاة العرب واليونان في أوائل نشأة النّحو العربي".

وللتدليل على بطلان هذا الزّعم والتّرجيح من فيشر، أنقل كلاماً في حدّ الاسم على طريقة النّحويين وطريقة المنطقيين لأبي إسحاق الزّجاجيّ من علماء القرن الرابع الهجري، القرنِ الذي غدا فيه لعلوم المنطق أثرٌ كبير على مباحث النّحويين الذين مَهّدوا الطّريق لتأثّر النّحو بالفلسفة والمنطق، وفيه بيانُ الفرق بين الحَدَّيْنِ؛ قال: "الاسم في كلام العرب ما كان فاعلاً أو مفعولاً أو واقعاً في حيّز الفاعل والمفعول به"، ثم قال: "هذا الحدّ داخل في مقاييس النّحو وأوضاعه، وليس يَخْرج عنه اسم ألبتّة، ولا يدخل فيه ما ليس باسم، وإنّما قلنا في كلام

العرب؛ لأنّا له نقصد، وعليه نتكلّم، ولأنّ المنطقيين وبعض النّحويين قد حدّوه حدّاً خارجاً عن أوضاع النّحو، فقالوا: الاسم صوتٌ موضوعٌ دالٌّ باتّفاق على معنى غيرِ مقرون بزمان. وليس هذا من ألفاظ النّحويين ولا أوضاعهم، وإنّما هو من كلام المنطقيين وإنْ كان قد تَعَلّق به جماعة من النّحويين، وهو صحيح على أوضاع المنطقيين ومذهبهم؛ لأنّ غرضَهم غيرُ غرضنا، ومَغْزاهم غيرُ مَغْزانا، وهو عندنا على أوضاع النّحو غيرُ صحيح"[55].

هذا نموذج على طريقة المنطقيين في حَدّ المفاهيم، ورَفْضِها من قبل النّحويين، وإنّه يُذَكّرنا بنحو الرّمانيّ على ما وصفه أبو علي الفارسي إذْ قال: "إنْ كان النّحو ما يقوله أبو الحسن الرّمانيّ فليس معنا منه شيء، وإنْ كان النّحو ما نقوله فليس معه منه شيء"[56]، فهل كان النّحو عند سيبويه على هذه الطّريقة؟ ثمّ لا نتّفق مع الراجحيّ الذي جعل من الزّجاجي نموذجاً لاتّصال النّحاة بالمنطق الأرسطي وبمنهجه في التعريف، إذْ حَدَّ "الاسم" على الصّورة السّابقة[57]؛ لأنّ النّحاة كانوا متأثّرين بمدرسة القياس عند الفقهاء كما أشرت، ولِمَ جَعْلُه الزّجاجيَّ نَموذجاً وكلامُه لا يَحْتمل تأويلاً في اتّباعه منهج النّحويين لا المنطقيين؟

من هنا، كان للمناظرة الشّهيرة بين متّى بن يونس (ت 328هـ) وأبي سعيد السّيرافي (ت 368هـ) زَمَنَ تَغَوُّلِ المنطق اليوناني في صياغة العلوم، كان لها أهمّيّة كبرى في سياق تداخل النّحو بالمنطق، وتَكْمن أهميّتها في إثبات أصالة منهج النحويين، وأنّ اللغة ليست بحاجة "إلى مَنْ يُفلسفها أصلاً، إذْ لها منطقها الخاص المميّز"[58]، لذلك لم يَعُدِ المنطقُ الوسيلةَ الوحيدة للمعرفة العلميّة، وإنّ السّيرافيّ وهو يَطْرح أسئلته على مَتَّى، قدّم منهجَ علماءِ العربيّة في الفَهْم والاستدلال، وفَهِم المنطقَ كما فَهِمه علماءُ اللغة العرب على أنّه منطق العربيّة، وأنّه "النّطقُ الملازم لِلُغَة مُعَيّنة، والتركيبُ الذي يَكْمن في الكلام فيجعله قولاً معقولاً"، وفَهِم منطق اليونان ممثّلاً بأرسطو، على أنّه "النّطق الملازم لِلُّغة الإغريقيّة كما تحدّثها أرسطو، واستخدمها في التعبير عن نفسه"، وعلى ذلك اتّهم السّيرافي متّى بأنّه "يدعو تلاميذه لتعلّم علم المنطق، بل لتعلّم اللغة الإغريقيّة نفسها"[59].

وإذا كان الزّجاجيّ نحويّاً تَشرَّبَ النّحو والمنطق في آنٍ معاً يَقُول بِقَوْل النّحويين، فكيف بفيشرَ ومن حذا حذوه يَزْعم بأن "الاسم" من أقسام الكلام مصطلح دخيل في بداية النّحو ونشأته، عن طريق الحوار بين النحويين العرب وغيرهم؟

ولم يقف فيشرُ عند هذا الحد، فإنّه عندما عرض لبعض المصطلحات عند فيرستيغ، مثل: "الفعل المتعدي"، و"اسم الفعل"، و"الصّرف"، و"الصحيح"، و"المعتل"، قال: "وعندما نُمِرّ النظر الآن على نتائج المناقشة حول التأثير اليوناني على نشأة النّحو العربي، نجدها تتلخّص في أنّ العلماء قد اكتشفوا بضعة مصطلحاتٍ نحويّةٍ فقط، يمكن إرجاعُها إلى نماذجَ يونانيّةٍ، وهذا ما يَجْعلُنا نُسَلّم بأنّ الحوار المحتمَل بين النّحاة العرب واليونان قد وقع فعلاً في بداية الأمر".

غير أنّه لا يُسلّم بكلّ ما جاء به فيرستيغ، فيعطف على مقالة جيرار تروبو، ويزعم أنّ ما سَلَّمَ به من حوارٍ محتمل بين النّحاة العرب واليونان، لا يتعارض مع تسليمه بما جاء به تروبو في نتائجه التي خطّأ بها منهج المستشرقين الذين اتّخذوا بضعة مصطلحات يونانيّة، ليبرهنوا أنّ النّظام العربيّ يضارع النّظام اليوناني[60]، وهذا إنّما يدلّ على ضعف الفرضيّة التي يحاول فيشرُ إثباتها، فتعوزه الأدلة ويُحْوجه الدّليل.

أمّا فيرستيغ الذي وصفه فيشرُ في معرض حديثه عن فرضيّته حول نشأة النّحو العربيّ، بأنّه نافذ الحكم على النّحو اليوناني والنّحو العربي، وذلك يَمْنح بحثه وزناً في نزاع الاحتجاج بحسب عبارته، فقد عَرَض لبعض النّقاط المتّصلة بالأمثلة والمصطلحات عنده، كي يبرهن من خلالها على أنّ ثَمَّة حواراً حصل بين النّحاة العرب الأوائل مع غيرهم من اليونان والسّريان، مع أنّه لم يسلّم بكلّ ما جاء به، اعتماداً منه على إحالات تروبو الفرنسيّ.

وثَمّة وَقَفَاتٌ نقديّة لفرضيّة فيرستيغ حول نشأة النحو العربي واستدراكاتٌ عليها، كتبها الدكتور محيي الدين مُحَسّب وهو يقدّم لفصول من كتاب فيرستيغ "عناصر يونانيّة في التفكير اللغوي عند العرب" قام بترجمتها، ناقش فيه فيرستيغ

من خلال محاور أربعة: طبيعة نشأة العلم ونشأة النّحو العربي، وطبيعة المفاهيم والمصطلحات النّحويّة، ومفهوم العناصر اليونانيّة، ووسائل الاستدلال على الفرضيّة- ما يغني عن الوقوف عندها[61]. وإنّ مُحسِّباً وهو يبطلُ فرضيّة فيرستيغ بتأثّر النّحو العربيّ بالنّحو اليونانيّ، فإنّ ما طرحه فيشرُ يَتَقاصَرُ شَأْوُه أمام جُمْلة الأفكار والمفاهيم التي سجّلها فيرستيغ في كتابه، وإذْ لم يُوفّق فيرستيغ في إثبات فرضيّته، فإنّ ما جاء به فيشر من باب أولى.

ثمّ إنّ هذه المصطلحات المستخدمة في كتاب سيبويه، كان عَرَض لها ميركس، ورأى أنّها لا تكونُ من ابتكاره على غير نمطٍ سابق، بل عَدَّها ترجمةً لمفاهيم يونانيّة كالرّفع والنّصب والإعراب، مع أنّ سيبويه كان يستعملها استعمال الكلمات المعروفة التي لم تعد في حاجة إلى تحديد أو تفسير أو تعليل، فهل شاعت مصطلحات أرسطو بسرعة، جَعَلت الناس - كما يقول الدكتور المهيري - يَتَمثّلونها من غير شرح وتوضيح؟[62]

ثالثاً - كتاب مفاتيح العلوم

أشرت سابقاً إلى أنّ فيشر انطلق لإثبات ما يزعمه من تأثّر النّحو العربيّ بعلوم اليونان إلى الفصل الخاصّ بالنّحو في كتاب الخوارزميّ، ولذلك فليس غريباً أنْ يرى ما جاء في كتابه، يؤكّد اتصال النّحو العربي أولَ نشأته بالفكر اليوناني، وتحت تأثيره عليه، قال: "وبالنّظر إلى النصّ المذكور في كتاب "مفاتيح العلوم"، لا يمكن الشّكّ في أنّ النّحو العربي كان في بداية أمره على الاتصال بالفكر اليوناني وتحت تأثيره عليه"، بل ذهب إلى أكثر من ذلك حين جعل نتيجة التأثّر مذاهبَ نَحويّةً على طريقة فلاسفة اليونان، قال: "كان هناك مذهبٌ نحويّ خاصّ يسمّيه صاحبُ "المفاتيح" بـ (مذهبِ فلاسفةِ يونانَ)، وهذا ليس دليلاً على الحوار بين النّحاة العرب واليونان فقط؛ وإنّما على وجود مذهب نحوي عربي تَعلّق بالفلسفة اليونانية مباشرة، وسُمّي لذلك (مذهبَ فلاسفةِ يونانَ)".

ورأى فيشر أنّ قول الخوارزميّ في بداية الفصل الأوّل: "هذه الصّناعة

تسمّى باليونانيّة "غرماطيقي"، وبالعربيّة النّحو"[63] يؤيّد رأيَه، وأنّه لا يجد مندوحة بناءً على هذا القَوْلِ، بل صار حتماً عنده، القولُ: "إنّ العلماء القدامى أو بعضاً منهم على الأقل، كانوا يُلمّون بوجود النّحو اليوناني، ويَعْرفون الكلمةَ اليونانيّةَ المقابلة للنّحو، بل إنّ بعضهم كان يَتبع مذهب اليونان" على حدّ تعبيره.

وإذْ عرض فيشر لحديث الخوارزميّ عن "مذهب فلاسفة اليونان" في جانبه الصّوتيّ، من أنّ الرّفع والضّم وأخواته واو ناقصة، والكسر وأخواته ياء ناقصة، والفتح وأخواته ألف ناقصة، وأنّ الواو الممدودة ضمّةٌ مُشْبعة، والياء الممدودة كسرةٌ مُشْبعة، والألف الممدودة فتحةٌ مُشْبعة، وأنّه ينطبق في رأيه على النّظام الصّوتي للنّحو اليونانيّ، الذي يُفرِّق في مجال الحركات بين الصّوت الممدود والصّوت القصير- فقد أكّد أنّ ما أورده الخوارزميّ، لا يكون بغير اللغة العربيّة؛ لأنّه لا معنى لمصطلحاتِ الرفع والضمّ والكسر والفتح في النّحو اليونانيّ، وأنّ الصّوتيّات ليست من مواضيع المنطق، والذي أباح لفيشر أنْ يجاري الخوارزميّ المنطقيّ في كلامه، هو أنّ اليونان لا يُميّزون المنطق من النحو، اللذين يرجعان إلى صاحبهما أرسطو.

وعليه، اتفقت عبارةُ أصحابِ المنطق مع التقليد العلميّ لليونان، وذلك راق لفيشر تسميةُ الخوارزميّ النحاةَ العربَ الذين قاموا على أساسِ التقليد اليوناني، بأصحاب المنطق من اليونانيين.

وهذه حالة أُخْرى من الحالات التي سار فيها فيشرُ على غيرِ هدى، ولعلّها من التناقضات التي وقع فيها وهو يُسَطّر مقالته؛ ففي الوقت الذي يَرُوق له تَسْميةُ النّحاة العرب بأصحاب المنطق من اليونانيين الذين لا يميّزون المنطق من النّحو، يرى بأنّ ما يتّصل بالأصوات الطّويلة والأخرى القصيرة لا يكون بغير العربيّة، لتعذّر وجود المصطلحات الدّالّة عليها في النّحو اليونانيّ!

وإذا كان علماء اللغة العرب أنفسهم يفرّقون بين الأصوات القصيرة والطويلة، ووصلوا فيها إلى نتائج طيّبة، قال سيبويه: "فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضّمّة من الواو"[64]؛ أي أنّ الحركات أبعاضُ حروف،

وإلى هذا المعنى أشار ابن جنّي إذْ عقد باباً أسماه "بابٌ في مضارعة الحروفِ للحركات والحركاتِ للحروف" قال فيه: "الحركةُ حرف صغير؛ ألا ترى أنَّ من متقدّمي القوم من كان يُسمِّي الضمّة الواوَ الصّغيرة، والكسرةَ الياء الصّغيرة، والفتحة الألف الصّغيرة"[65]، فإذا كان ذلك كذلك، فما المسوّغ إلى إدراج الفكر اللغوي العربيّ في سياق "مذهب فلاسفة اليونان"؟ وهل يَصْلح ذلك لإثبات تأثّر النّحو العربيّ بغيره من الأنْحاء؟

رابعاً - مصطلحات الخليل

يرى فيشر أنّ الخليل استخدم مصطلحاتٍ نحويّةً تجمع بين شكل الكلمة ووظيفتها، وذلك من خصائص النّظام النّحوي اليوناني، قال: "فنرى من هذه الأمثلة القليلة أنّ الخليل كان يستخدم مصطلحاتٍ نحويّةً تجمع بين شكل الكلمة ووظيفتها، ونعني بذلك أنّه يستخدم مصطلحاً خاصّاً لرفع الاسم، ومصطلحاً آخر لرفع الفعل، وإنّه بادٍ للنظر أنّ لرفع الاسم وظيفةً مختلفةً عن وظيفةِ رفعِ الفعل المضارع؛ وإلى جانب ذلك يميّز الخليل إعرابَ الاسم المعرّف من إعراب الاسم المنكّر".

ويرى أنَّ الفرق في المصطلحات التي أثبتها في مقالته بين الخليل وسيبويه على أساس نصّ كتاب "مفاتيح العلوم"، يشكّل نقطةً مهمّة في سياق الحديث عن نشأة النّحو العربيّ وتاريخ تَطوُّره؛ لأنّ نظام المصطلحات عند الخليل يقوم على الرّبط بين شكلِ الكلمة ووظيفتِها، وذلك من خصائص النظام النحوي اليوناني، وهو غير موجود في كتاب سيبويه؛ فيتضح عنده "أنّ موقف الخليل في تطوّر النحو، قريبٌ إلى حدٍّ ما من النّحو اليوناني، في حين أنّ موقف سيبويه بعيد عنه".

ومصطلحات الخليل التي أوردها الخوارزميّ عِدّتها واحد وعشرون مصطلحاً، لا تَخْرج فيما يظهر لي عن خمس مجموعات:

أولاها - المجموعة المتحرّكة (بنات الواو)، وهي:

1 - الرّفع، وخُصّ عند الخليل لأعجاز الكلم منوّناً كـ "زيدٌ".

2 – الضمّ، وخصّ لأعجاز الكلم غيرَ منوّنٍ كـ "يفعلُ".

3 – والتّوجيه، ما وقع في صدور الكلم، نحو عين "عُمر"، وقاف "قُثم".

4 – والحَشْو، ما وقع في الأوساط، نحو جيم "رجُل".

5 – والنَّجْر، ما وقع في أعجاز الأسماء دون الأفعال غير منوّن ممّا ينوّن، نحو اللام من قولك: هذا الجبلُ.

6 – والإشمام، ما وقع في صدور الكلم المنقوصة، نحو قاف "قيل" إذا أُشمّ ضمّة.

وثانيتها – المجموعة المتحرّكة (بنات الألف)، وهي:

7 – النّصب، وخُصّ عند الخليل لأعجاز الكلم منوّناً كـ "زيداً".

8 – الفتح، ما وقع في أعجاز الكلم غير منوّن، نحو باء "ضربَ".

9 – القَعْر، ما وقع في صدور الكلم، نحو ضاد "ضرب".

10 – التفخيم، ما وقع في أوساط الكلم على الألفات المهموزة، نحو "سأَل".

11 – الإرسال، ما وقع في أعجاز الكلم على الألفات المهموزة، نحو "قرأَ".

12 – التيسير، وهو الألفات المستخرجة من أعجاز الكلم، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ﴾.

وثالثتها – المجموعة المتحرّكة (بنات الياء)، وهي:

13 – الخفض، وخُصّ عند الخليل لأعجاز الكلم منوّناً كـ "زيدٍ".

14 – الكسر، ما وقع في أعجاز الكلم غير منوّن، نحو لام "الجملِ".

15 – الإضجاع، ما وقع في أوساط الكلم، نحو باء "الإبِل".

16 – الجرّ، ما وقع في أعجاز الأفعال المجزومة عند استقبال ألف الوصل، نحو: ليذهبِ الرّجلُ.

ورابعتها – المجموعة السّاكنة، وهي:

17 – الجزم، وخصّ لأعجاز الفعل مجزوماً كالباء في "اضربْ".

18 – التسكين، ما وقع في أوساط الأفعال، كالفاء في "يفْعل".

19 – التوقيف، ما وقع في أعجاز الأدوات، كالميم في "نعمْ".

والخامسة – المجموعة البينيّة، وفيها مصطلح واحد هو:

20 – الإمالة، ما وقع على الحروف التي قبل الياءات المرسلة، نحو: عيسى، وموسى، وضدّه:

21 – التفخيم.

ثمّ إنّه يمكن جَمْع هذه المصطلحات التي نُسبت إلى الخليل وحُكيت عنه في ثلاث طوائف، هي:

الطائفة الأولى: الرّفع، والنّصب، والخفض، والجزم، ويتقاطع معها: الضمّ والنَّجْر، والفتح والتيسير، والكسر، والتوقيف.

والطائفة الثانية: مصطلحات جاءت على صور الرّفع والنّصب والخفض والجزم؛ أسماءً على حروف بنية الكلمة، كالتَّوجيه والحَشْو، والقَعْر والتفخيم والإرسال، والإضجاع، والتسكين.

والطائفة الثالثة: الإشمام في الرفع، والجرّ في الخفض حركةً للتخلّص من التقاء الساكنين، والإمالة وضدّها التفخيم.

ويبدو أنّ مصطلحات الطائفة الأولى هي المعنيّة في هذا السّياق؛ لأنّها تطوّرت بتطور المصطلح عند سيبويه فغدت عنده مقسّمة على الكلمات المُعْربة والمبنيّة؛ فجعل: "الرَّفعَ والنّصب والجرّ والجزم" علاماتٍ للكلمات المعربة، وجعل "الضَّمَّ والفتحَ والكسر والسّكون" علاماتٍ للكلمات المبنيّة، وطريقته هذه طريقة تعليميّة صِرْفة رام بِها الاختصار والتبسيط[66]، وابتعد عن الحشو والتطويل، وانتظمت عنده الكلمات من غير اضطراب ولا تناقض.

وسيبويه بهذا المنهج المحكم كان يؤسّس لنظريّة قام عليها النّحو كلّه، هي نظريّة العامل؛ قال: "وإنّما ذَكَرتُ لك ثَمانيةَ مَجارٍ، لأُفرّق بين ما يَدْخله ضربٌ من هذه الأربعة لِما يَحْدث فيه العامل- وليس شيء منها إلّا وهو يزول عنه- وبين ما يُبنى عليه الحرفُ بناءً لا يزول عنه لغير شيءٍ أحدث ذلك من

العوامل، التي لكلّ عاملٍ منها ضربٌ من اللفظ في الحرف، وذلك الحرفُ حرفُ الإعراب"[67].

وعليه، فإنّ ما أثبته الخوارزميّ في كتابه من مصطلحات للخليل، يتناقض بالجملة عمّا ورد في كتاب سيبويه، فقد استخدم الخليل "مصطلح الرّفع للكلمات المعربة سواءٌ كان آخرُها منوّناً نحو: رجلٌ، من قولك: هذا رجلٌ، أم غيرَ منوّنٍ نحو: آخرُ، من قولك: في الدّار آخر، وسواءٌ كان إعرابُها بالحركات كالمثالين المتقدّمين، أم بالحروف نحو: أخوك، من قولك: كأنّ عبدالله أخوك. وكان يطلق كلمة الرّفع أيضاً على محلّ الكلمة من الإعراب إذا كان محلّها الرّفع، وذلك نحو قوله: إنّ حبّذا اسم مرفوع"[68]، وذلك غير منسجم ألبتّة بما ورد في "الكتاب" الذي دوّنه سيبويه من عقول أشياخه وفي مقدّمتهم الخليل، وذلك يَشِي بأنّ الخوارزميّ اعتمد في انتقاء مصطلحاته على مجهودٍ شخصيّ، و"اعتمد في تفسيرها على ثقافته كثيراً، وعلى النّقل عن السّابقين قليلاً، بحيث لم يَرِد في الكتاب إلّا الخليل بن أحمد بإزاء بعض النّقول، وما عدا ذلك فهو لا يُحيل إلى مرجع إلّا بعبارة (قيل)، أو (قال)، من دون أن يَسْبق ذِكْرٌ لمن قال"[69].

ولا شكّ أنّ نَحْو الخليل لم يَعْرفه الباحثون إلّا من طريق سيبويه، فهو السّند الثَّبْتُ المتّصل إليه، والكتابُ - على حدّ مهدي المخزومي - هو كتابُ الخليل في جُمْلته وتفصيله، يَصْدر عنه النّحويّون، وعن مجلس الخليل "نشأ المذهبان النّحويّان الكبيران: مذهبُ البصريين ومذهبُ الكوفيين، فقد تخرّج بالخليل إمام أهل البصرة وإمام أهل الكوفة، وإذا اختلف المذهبان في المسائل والفروع، فقد اتفقا في الخطوط العريضة التي يتألّف منها نحو الخليل"[70]، وعلى ذلك سار الدّرس النّحويّ في القرون التالية.

وإنّ صِدْق سيبويه وأمانته في تدوين النّحو وتَبْيينِه على هذه الصّورة الوصفيّة المبكِّرة، لَيُبعد عنه كلَّ نَقيصةٍ أو خارمة؛ فإنّ الفترةَ القصيرة التي عاشها سيبويه بعد أستاذه، وتَطَلُّعه إلى رَغَد العيش، والحالةَ التي آل إليها مُنْصَرَفه من بغداد، ليست كفيلة بأيّ تغيير أو تبديل، لذلك بقيت المصطلحات على حالها

كما نقلها عن سابقيه، "فعبر عن مصطلحات الخليل بالطريقة التي صدرت عن الخليل، تلك الطريقة التي كان الخليل ينثر المصطلحات نثراً في ثنايا الحديث عن المسائل النّحويّة، دون أن يقصد المصطلح ذاته؛ لأنّه كان يجعل همّه تفسير المسائل لا الصّناعة والصّياغة وذكر الحدود"[71]، وتلك طبيعة المرحلة التي يُؤَسَّسُ فيها لعلومٍ، ونشأ على أساسها النّحو العربيّ.

وإذا استعرضنا المصطلحات النّحويّة المنسوبة للخليل، فإنّنا سنكون بإزاء ملاحظة جديرة بالاهتمام، ألا وهي عدم استقرار المصطلح النّحوي فيها، وقد نبّه على ذلك كثير من الباحثين[72]. وقد ناقش الدكتور عوض القوزيّ مسألة "المصطلح النّحويّ عند الخليل"[73]- كما وردت في كتاب الخوارزمي، قبل أن يُخْرِج فيشر مقالته إلى النّور- مناقشة مستفيضة، فيها غُنية لكلّ مستزيد، كما عرض لشيء منها الدكتور إسماعيل عمايرة في معرض حديثه عن فيشر[74].

وبعد،

فإنّ هذا كلَّه اتّخذه فيشر دليلاً على اتّصال النّحاة العرب الأوائل مع اللغويين الإغريق والسّريان في أوائل نشأة النّحو العربيّ، وإجرائِهم حواراتٍ معهم، وأسقطه على زمنٍ لم تكن فيه العلوم الدّخيلة قد أخذت موقعها في البيئات العربية وثقافة المسلمين وعلومهم، وهو في ذلك كلّه كان يُحْوجه الدّليل؛ لأنّ ما ينقله ويحاول إثباته، إنّما ينطبق على الفترة التي صِيغ فيها كتاب الخوارزميّ.

وإذا كانت البذور الأولى للمنطق عند اليونان، بدأت في أبحاث السوفسطائيّة الخاصّة باللغة والخطابة والنّحو أساساً للمنطق، وإذا كان يَصْعب الفصل بين الكتابتين المنطقيّة والنّحويّة عند أرسطو[75]، وإذا كان فيشر يحشد أقواله ليثبت أنّ النّحو العربيّ في بداياته تأثر بالنّحو اليونانيّ، فإنّ ذلك يمكن أن يَصْدق على مراحل[76] متأخّرة من عمر النّحو في القرنين الثالث والرابع الهجريين، أي في مرحلة النّضوج والتداخل لا الإنشاء والتأسيس- فإذا كان ذلك كذلك، فإنّه ليس من طبائع الأشياء "أنْ ينشأ علم على أساسٍ من علمٍ آخرَ، يختلف عنه من حيثُ الغايةُ والمنهج والموضوع"[77].

ولذلك نرى فيشر يؤكّد عكس ما يَزْعُمه بقوله – وقولُه حُجّة داحضة لفرضيّةٍ يريد إثباتها –: "ومن المعروف أنّ المسلمين عَرَباً كانوا أم غير عَرَب، سرعان ما أَخَذوا ما يَبدو لهم صالحاً من هذه العلوم واستفادوا منها، فبدؤوا ينقلون الكتب والرسائل المكتوبة باللغة اليونانيّة أو السّريانيّة أو الفارسيّة إلى العربيّة، ونتيجة لذلك كانت الحضارة الإسلاميّة تَتصرّف في مجموعةٍ واسعةٍ من الكتب العلميّة التي تتناول جميع مواضيع العلوم باللغة العربيّة"، فهل كانت حركة التّرجمة والنقل هذه تَمّت في بدايات نشأة النّحو؟ وهل يتمّ هذا التّصرّف في بدايات النّقل؟ أو هو حركة منظّمة تقوم على دعائمَ وأسسٍ في دولة تَضْرب جِرانَها في الأرض؟

ثمّ هو ينفي بعد ذلك أنْ يكون ثَمّة من الكتب المنقولة إلى العربيّة عن اللغات المُترجم منها، كتبٌ أو رسائل في اللغة والنّحو، وذلك ليس غريباً عنده؛ لأنّ النَّحو يرتبط دوماً بلغة واحدة معيَّنة، "فلا فائدة من ترجمة مثل هذه الرسائل من لغة إلى أخرى، لأجل إقامة علم النحو لِلُغة جديدة" على حدّ قوله.

وقولُه هذا ينصبّ على حركة الترجمة المتأخرة التي يؤكّد الدارسون تأثرَ العربيّةِ فيها بعلوم الفلسفة والمنطق، فإذا كان ذلك لا فائدة منه للنّحو في القرون اللاحقة، فكيف يجوز أن يُقْصر على النّحاة الأوائل قبل سيبويه، وأنّهم متأثرون ببداياتهم بنحو الأقوام كالفرس واليونان والسّريان، من خلال مُحَاورة عُلمائِهم (العائشين) بجوارهم؟

الهوامش والمراجع

(1) انظر: **أبحاث عربيّة في الكتاب التكريمي للمستشرق فيشر**، إعداد وإصدار: هاشم الأيوبي، ط1، طرابلس لبنان: دار جروس برس، 1994م، ص37.

(2) انظر: الخوارزمي الكاتب، محمّد بن أحمد: **مفاتيح العلوم**، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، ط1، بيروت: دار المناهل، 2008، ص31.

(3) قام الباحث بقراءتها والتقديم لها والتعليق عليها، وسوف تنشر – إن شاء الله – بأحد أعداد **مجلة العلوم العربيّة** القادمة، التي تصدر عن جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة بالرّياض، وما أنقله عن فيشر فيها، من النسخة الخطيّة بين يديّ.

(4) نشر المستشرق الهولندي فان فلوتن كتاب (مفاتيح العلوم) للخوارزمي في ليدن سنة 1314هـ/

1895م. انظر: العقيقي، نجيب: **المستشرقون**، ج2، ط3، القاهرة: دار المعارف، 1964م، ص663.

(5) مُحسَّب، محيي الدين: **الثقافة المنطقيّة في الفكر النحوي** (نحاة ق4هـ نموذجاً)، نسخة إلكترونية، ص39.

(6) انظر: فرستيغ، كيس: **عناصر يونانيّة في الفكر اللغوي العربي**، ترجمة: محمود كناكري، ط2، إربد: عالم الكتب الحديث، 2003م، ص38.

(7) عمايرة، إسماعيل: **المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة**، ط2، عمّان: دار حنين، 1992م، ص72.

(8) نشرت في: **مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني**، ع1، 1978م، ص125 وما بعدها.

(9) المجدوب، عز الدين: **المنوال النّحوي العربي**، ط1، تونس: دار محمد علي الحامي، 1998، ص178.

(10) انظر: نشأة النحو في كتاب سيبويه، ص130.

(11) انظر: نشأة النحو في كتاب سيبويه، ص136-137.

(12) انظر: السّيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبدالله: **أخبار النحويين البصريين للسيرافي**، تحقيق: محمّد علي البنا، ط1، القاهرة: دار الاعتصام، 1985م، ص36.

(13) انظر: بروكلمان، كارل: **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة: عبد الحليم النجار، ج2، القاهرة: دار المعارف، 1961، ص123.

(14) انظر: الحاج صالح، عبد الرّحمن: "تأثير النظريات العلميّة اللغويّة المتبادل بين الشّرق والغرب: إيجابيّاته وسلبيّاته"، **مجلّة مجمع اللغة العربيّة** بالقاهرة، ع 96، ص116.

(15) انظر: بدوي، عبد الرحمن: **موسوعة المستشرقين**، ط3، بيروت: دار العلم للملايين، 1993م، ص314 وما بعدها، والمستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة، ص38، وعمر، أحمد مختار: **البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضيّة التأثير والتأثر**، ط6، القاهرة: عالم الكتب، 1988م، ص354.

(16) الرّوايات المشهورة في أوّليّة النحو، هي: الإمام علي، الإمام والدؤلي، الدؤلي بتوجيه من عمر، الدؤلي بتوجيه من زياد، الدؤلي عَرض على زياد وَضْع النحو، الدؤلي دون توجيه من أحد. انظر: الأنباري، أبو البركات: **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط3، الزرقاء: مكتبة المنار، 1985، ص18 وما بعدها.

(17) الجمحي، ابن سلام: **طبقات فحول الشّعراء**، قرأه وشرحه: محمود شاكر، ج1، جدّة: دار المدني، ص12.

(18) انظر: الدينوري، ابن قتيبة: **الشّعر والشّعراء**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج2، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1958، ص729، واللغوي، أبو الطيّب: **مراتب النّحويين**، تحقيق: محمد أبو الفضل، القاهرة: مطبعة نهضة مصر، 1955، ص6، وأخبار النحويين البصريين،

ص23، والزّبيدي، أبو بكر محمّد بن الحسن: **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق: محمّد أبو الفضل، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1973م، ص21، والنّديم، محمّد بن إسحاق: **الفهرست**، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ج1، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2009، ص103 وما بعدها، وانظر: الحلواني، محمّد خير: **المفصّل في تاريخ النّحو العربي**، ط1، بيروت: مؤسّسة الرسالة، 1979، ص39– 49.

(19) انظر: **الصّاحبي في فقه اللغة**، تحقيق: السّيّد صقر، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1977، ص13.

(20) انظر: أمين، أحمد: **ضحى الإسلام**، ج2، ط10، بيروت: دار الكتاب العربي، ص285، ومصطفى، إبراهيم: "أول من وضع النحو"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة فؤاد الأول، مج 10، ج2، 1948، ص72، وضيف، شوقي: **المدارس النّحويّة**، ط7، القاهرة: دار المعارف، ص13 وما بعدها، وغيرهم.

(21) انظر تفصيل ذلك: الحمد، غانم قدوري: **أبحاث في العربيّة الفصحى**، ط1، عمّان: دار عمّار، 2005، ص20 وما بعدها، والمفصّل في تاريخ النحو العربي، ص110.

(22) الأفغاني، سعيد: **من تاريخ النّحو**، ط2، بيروت: دار الفكر، 1978، ص27–28.

(23) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربيّ، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1993، ص19.

(24) انظر: الفهرست، ج1، ص107، 108.

(25) انظر: القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف: **إنباه الرّواة عن أنباه النّحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، ط1، بيروت: المكتبة العصريّة، 2004، ص172.

(26) الجوارنة، يوسف: **سعيد الأفغاني وجهوده في علم العربيّة**، ط1، إربد: مؤسسة حمادة للنشر والتوزيع، 2008، ص90، وانظر: عون، حسن: **اللغة والنّحو**، ط1، الإسكندريّة: مطبعة رويال، 1952، ص230.

(27) ناصف، علي النّجدي: **سيبويه إمام النّحاة**، ط1، مكتبة نهضة مصر، 1953، ص134.

(28) اللغة والنّحو، ص61.

(29) الحلقة المفقودة في تاريخ النّحو العربيّ، ص25، 28.

(30) عون، حسن: **تطوّر الدرس النّحوي**، ط1، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربيّة، 1970، ص17.

(31) نشأة النحو العربي في كتاب سيبويه، ص138.

(32) تطوّر الدّرس النحوي، ص27.

(33) انظر: موسوعة المستشرقين، ص106، والمستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة، ص68.

(34) نشرت في **مجلّة كليّة الآداب**، جامعة الجزائر، مج1، 1964، ص (67–86).

(35) نقلاً عن: "تأثير النّظريات العلميّة اللغويّة المتبادل بين الشّرق والغرب"، ص114.

(36) انظر: جهامي، جيرار: **الإشكاليّة اللغويّة في الفلسفة العربيّة**، ط1، بيروت: دار المشرق، 1994م، ص115.

(37) انظر: المخزومي، مهدي: **الفراهيدي عبقري من البصرة**، ط2، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، ص88، وموسوعة المستشرقين، ص464.

(38) نقلاً عن: ضحى الإسلام، 2/ 292، 293، وانظر: الفراهيدي عبقري من البصرة، ص88، وموسوعة المستشرقين، ص512.

(39) انظر: زغلول، الشّحات: **السّريان والحضارة الإسلاميّة**، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1975، ص124، وموسوعة المستشرقين، ص218.

(40) اللغة والنحو، ص250، وانظر: البحث اللغوي عند العرب، ص354، وياقوت، أحمد: **ظاهرة الإعراب في النّحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم**، الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعية، 1994، ص54، 55.

(41) نقلاً عن: الحديثي، خديجة: **المدارس النّحوية**، ط3، إربد: دار الأمل، 2001، ص35.

(42) انظر: البحث اللغوي عند العرب، ص357.

(43) "تأثير النظريات العلميّة اللغويّة المتبادل بين الشّرق والغرب"، ص118.

(44) انظر: الإشكاليّة اللغويّة في الفلسفة العربيّة، ص126.

(45) انظر: "منطق أرسطو والنّحو العربي" له، **مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة**: ج7، 1953، ص342، 343، والمهيري، عبد القادر: **نظرات في التراث اللغوي العربي**، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993، ص88.

(46) انظر: الأنباري، أبو البركات: **لمع الأدلة**، تحقيق: سعيد الأفغاني، ط1، دمشق: مطبعة الجامعة السوريّة، 1957، ص93.

(47) انظر: الجويني، أبو المعالي: **البرهان في أصول الفقه**، تحقيق: عبدالعظيم ديب، ج2، ط1، دولة قطر، 1399هـ، ص745، وبخيت، مصطفى: **أثر العقيدة وعلم الكلام في النحو العربي**، مصطفى بخيت، ط1، القاهرة: دار البصائر، 1433هـ/ 2012م، ص52.

(48) الإشكاليّة اللغويّة في الفلسفة العربيّة، ص119.

(49) الإشكاليّة اللغويّة في الفلسفة العربيّة، ص119.

(50) الأفغاني، سعيد: **في أصول النّحو**، بيروت: المكتب الإسلامي، 1987، ص100– 107، وانظر: تأثير العلوم الإسلاميّة – ومنها الفقه – في النّحو العربي: مفتاح، رباح: "النّحو العربيّ بين التأثّر والتأثير"، مجلّة جامعة الأزهر بغزّة، مج11، ع2، 2009م، ص140 وما بعدها.

(51) انظر: في أصول النّحو، ص104.

(52) حسن، عباس: **اللغة والنّحو بين القديم والحديث**، ط1، القاهرة: دار المعارف، 1966، ص22.

(53) انظر: طبقات فحول الشعراء، 1/ 14، وانظر: مراتب النحويين، ص12، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص26.

(54) الفراهيدي عبقري من البصرة، ص75، وانظر: نظرات في التراث اللغوي العربي، ص90.

(55) الزّجّاجي، أبو القاسم: **الإيضاح في علل النّحو**، تحقيق: مازن المبارك، ط3، بيروت: دار النفائس، 1979، ص48.

(56) نزهة الألباء، ص234.

(57) انظر: الراجحي، عبده: **النّحو العربي والدّرس الحديث**، ط1، بيروت: دار النّهضة العربيّة، 1979، ص74.

(58) انظر: الإشكاليّة اللغويّة في الفلسفة العربيّة، ص131.

(59) الثقافة المنطقيّة في الفكر النّحوي، ص18 في المواضع الثلاثة، وانظر: التوحيدي، أبو حيّان: **المقابسات**، تحقيق: حسن السّندوبي، ط2، دار سعاد الصباح، 1992، ص71.

(60) انظر: نشأة النحو في كتاب سيبويه، ص136-137.

(61) انظر: **الفكر اللغوي بين اليونان والعرب**، المنيا: دار الهدى للنشر والتوزيع، 2001، ص11-55، 293-319.

(62) انظر: نظرات في التراث اللغوي العربي، 91.

(63) انظر: مفاتيح العلوم، ص53.

(64) سيبويه، عمرو بن عثمان: **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون، ج4، ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1988، ص242.

(65) ابن جني، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، ج2، القاهرة: دار الكتب المصرية، ص315.

(66) انظر: القوزي، عوض: **المصطلح النحوي نشأته وتطوّره حتى أواخر القرن الثالث الهجري**، ط1، جامعة الرياض، 1981، ص122.

(67) الكتاب، 1/ 13، وانظر: المصطلح النّحوي نشأته وتطوّره، ص123.

(68) عبابنة، جعفر: **مكانة الخليل بن أحمد في الدّرس النّحوي**، ط1، عمّان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 1984، ص158-159.

(69) انظر: جفال، محمود: "المصطلح اللغوي عند ابن جني في كتاب الخصائص مصدره ودلالته"! **مجلة مجمع اللغة العربيّة الأردني**، ع71، 2006م، ص66.

(70) الفراهيدي عبقري من البصرة، ص93.

(71) انظر: المصطلح النحوي نشأته وتطوّره، ص129.

(72) انظر: سيبويه إمام النحاة، ص166، والمصطلح النحوي نشأته وتطوّره، ص88، والمستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة، ص75.

(73) انظر: المصطلح النحوي نشأته وتطوّره، ص89- 122.

(74) انظر: المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة، ص74-77.

(75) انظر: الثقافة المنطقيّة في الفكر النّحوي، ص11.

(76) انظر: أبو المكارم، علي: **تقويم الفكر النّحوي**، بيروت: دار الثقافة، ص68 وما بعدها.

(77) انظر: الثقافة المنطقيّة في الفكر النّحوي، ص42.

Wolfdietrich Fischer and the Emergence of Arabic Syntax

Yousuf al-Jawarnah

This research aims at the following:

First: Exploring German orientalist, Wolfdietrich Fischer's stance on the influence other grammars (Greek, and Syriac) had on Arabic syntax in the early stages of its emergence before Sibawayh. This part demonstrates the arguments Fischer considered and invalidates them. Fisher was drawing information from other Orientalists, therefore, his argument on the subject was devoid of true awareness on the history of the stage.

Second: Illustrating the academic value of Al-Khawarizmi's book, *The Keys to Science*, which Fischer used to prove the influence theory on which he built his research, and clarifying that the book does not provide a clear-cut historicization of syntax and its development.

Third: Repealing the separation between Sibawayh and his mentor, Al-Khalil within the history of syntax, and that Al-Khalil embodies the end of this supposed influence stage while Sibawayh represents the beginning of an Arab stage in which Arabic syntax was established purely, and not influenced by anything.